هنري دافيد ثورو

كاتب الطبيعة والعزلة والاحساس

لمحمد عبد الغني حسن

في مارس سنة ١٨٤٥ حينما اقترض هنري دافيد ثورو فأساً من صديقه الكاتب « الكوت » واخترق الغابة الى غدير « والدن » كان يمشي الى تحقيق أمل طالما صبت نفسه الى تحقيقه ... وكانت ذكرياته الاولى ترجع دائماً الى هذه البقعة التي تبعد ميلاً عن القرية ، لانهُ يذكر وهو صغير ان جدته احتملته وطوّفت به في تلك الغابة فودَّ لو أُتاحت له الايام ان تكون له مقاماً. وكبر الصبي ، وساقه الشوق الى الغابة ، ودعاه الهوى الى الغدير فأخذ يتردد عليه صائداً او سابحاً في الصيف ، أو متزلقاً على الجليد في الشتاء . ولقد فتن جمال الغدير ، وهدوء الغابة وعزلتها قلبَ الكاتب فكان يختلف اليهما من حين الى حين . وما زال كذلك حتى حبب اليه المقام هناك فأقام في جامعة هارفرد التقى « ثورو » بشاب يدرس الأدب القديم ، وقد اختار له كوخاً على ضفاف غدير هادئ .. لعل عزلة المكان تشجعهُ على المضي في دراسته . فود « ثورو » لو أُتيح له أن يجد مكاناً مثل ذلك المكان تطمئن اليه نفسه وفي ذلك كتبت اليه « مس مارجريت فلر » سنة ١٨٤١ (اود أن تخبرني هل ما زلت على عادتك من التردد الى ذلك الكوخ المنفرد ؟ لماذا تكتب إلي عن شاكسبير وهل كنت تقرؤه في ذلك الهدوء الجليل). ليس هذا الكوخ المنفرد هو الذي قضى الكاتب فيه أيام عزلته . وانما هو اول كوخ اتخذه فراراً من القرية الصاخبة استعداداً لكوخه الاخير في (والدن)

ولد « ثورو » في كونكورد (أميركا الشمالية) سنة ١٨١٧ في بيت متواضع من أب اتخذ صناعة أقلام الرصاص حرفة له ، وأم مرحة طروب أعمها سنتيا . وبعد اتمام دراسته الثانوية دخل جامعة هارفرد فلم يكن فيها نابهاً ولا ذائعاً . وانما اكتفى بالحصول على درجتها الجامعية. ودخل ميدان الحياة صانعاً للاقلام مرة ، ومعلماً مرة أخرى ، وصاحب جريدة أخيراً

وكان في صناعة التعليم زميلاً لشقيقه وحبيبه (جون) في إحدى مدارس كونكورد . وفي صيف سنة ١٨٣٩ بنى هو وأخوه قارباً وقاما برحلة نهرية اسفرت عن اول كتبه (أسبوع على نهري كونكورد وميريماك). لقد كانت صداقة ثورو الاولى بعد تركه الجامعة مع شاب نابه من قرينه

اسمهُ «رالف امرسون» فكان اوثق بينهما وثيقاً طويل الأمد . ولقد بلغ من وثوق الصلة بينهما ان عاش ثورو في بيت صاحبه ثلاث سنوات يساعده في تنسيق الحديقة ويدير معه شئون البيت

وكان ثورو يصنع الاقلام ويبني الاسوار ويمسح الارض . ولا يبالي العمل الحقير ما دام شريفاً . وظل كذلك حتى فاجأ جيرانهُ وأهل قريته — وهم عمليون لا يسبحون في سموات الخيال — بفراره الى الغابة للسكن في كوخ حقير . . .

لم يصطحب « ثورو » معهُ الى الغابة الاَّ بدنه الصحيح وعقله الرجيح ونفسه الهادئة كأنما وطن العزم على ان يستمتع بها الى حدٍّ بعيد . . . وكانت فطارة شبابه وصحة بدنه واستواء تركيبه اكبر عون له على العيش في الغابات . فهو ابن ثمان وعشرين . قصير بدين . مليء نشاطاً وحياة — وصف شبابه الاول في آخر أيامه فقال (لقد كانت حياتي متاعاً . في الشباب قبل ان تهد الايام أحاسيسي أستطيع ان أذكر أني كنت متقداً . . . ولقد كانت متاعب الشباب حلوة اليَّ كرغائبه) . ويقول (ليس البوغ الاَّ توفر الحياة واكتمال العافية ... حتى نستطيع ان نحس الجمال في كل شيء : — في هذه الحبَّات من التوت نطعمها . وفي خوار البقر كأنما يردد اصداءه الجبل الهادىء قبل المساء . . . حيث الندى المتأرج يعطر الهواء ... وهناك قوة لا تزول . وصفاء هادىء يخيل الى المرء معهما أن هذا الصباح المشرق دائم الى الابد . كل منظر أو صوت . وكل أريج أو طعم يبكر الانسان بخبر الصحة ...)

كان (ثورو) حاد الحواس لانهُ استعملها في الاحساس بجمال هذا العالم . ولقد قويت حاسة الشم فيه حتى أصبح يميز بين الازهار في ظلمة الليل البهيم برائحتها لا بشكلها . وكان يذوق الاشياء التي يرى الناس خطراً في تذوقها . . ولما ضعفت عينهُ من اختلاف السنين وتطاول العمر لم تضعف فيه قوة الابصار . وكان صديقه « امرسون » يدعوها « العين المجهرية »

اما الصوت فكان له تأثير عميق في نفسه . فهو يفرح اذا سمع نباح الكلب أو خوار البقر . أو مرور الريح على الشجر . وهو يطرب اذا سمع أسلاك البرق ترن رنيناً . أو أصغى الى الهواء يطن طنيناً . أو صوت واحدة من خشاش الارض ... هذه الاصوات المختلفة كانت تجعله يقضي الليل قائماً مستمعاً او كما يقول هو عن نفسه « مغموراً في أمواج الصوت المتلاطمة »

وكان يقول (أنا أحمد الله على الصوت . الصوت دائماً يصعد . ويجعلني دائماً في صعود) ويقول (لقد كانت حياتي بالامس متقطعة لا اتصال فيها ولا عمق في معناها ومنذ الساعة التي ارهفت فيها سمعي عادت اليَّ حريتي وانابني شعور روحاني)

ولا تنس حاسة اللمس فقد كانت قوية فيه وكان يقول (بدني كله يستطيع ان يلمس) . ولقد عوَّد يديه العمل . فكان نجاراً وبناء وفلاحاً ومساحاً وعاملاً في مصنع . وكان في ذلك

كله مجيداً . كان يستطيع ان يصنع قارباً او يقيم سوراً او يبني بيتاً او يرقع مدخنة او يزرع حقلاً او يصنع قلماً . . وكان ذلك سبيله الى كسب عيشه واقامة صلبه . وخلق الميل الى العزلة في نفس «ثورو» ميلاً الى الاستمتاع بالتجارب . وأتاحت له أيامه في «كونكورد» و«هارفرد» أن يوسع معارفه في الادب القديم وان يكتسب حباً لأينع ما أنتج الادب الانكليزي

ولم يكن مع ذلك كله متوقد الذكاء ولا مكباً على الدرس وانما هي طريقة هادئة اختارها ووصل بها الى ما يريد . وأضاف الى حبه للادب الانكليزي حباً آخر فأغرم بالكتب المقدسة ولاسيما كتب الهند ووجد لذة في مطالعة تاريخ أميركا وخطط مدنها وخاصة مدن «انكلترا الجديدة» واهتم بقراءة أخبار المستعمرين الاولين

وكيف يقاسي العزلة او يتحمل مرارة الوحدة من امتلأت خزائن قلبه بهذا التاريخ العظيم ؟

كان ثورو الطفل يجد سرور نفسه في الازهار والطيور والحيوان والاشجار والجبال والغدر (جمع غدير) والحقول فلما كبر تحول ذلك كله الى عاطفة شعرية لازمته طول حياته

اسمعه يقول (أيتها الطبيعة الثانية ! كم أتذكر الآن – بعد نسيان قصير—غابات الصنوبر ! اني أتهالك عليها كما يتهالك الجائع على كسرة من الخبز)

وكأنما أحست هوام الارض وبنات الطير بعطفه عليها . . . ! فاطمأنت اليه . . لقد كانت الطير تحط على كتفيه . والسمك يجري الى راحته . والزواحف تلتف حول رجليه . والجرذ يدور حوله ويداعبه . وما اجمل رضاه بأن يعيش عيشاً ساذجاً بين هؤلاء الاصدقاء المتواضعين !

كان «ثورو» رحالة عظيماً لا يدانيه عظماء الرحالين . ولكن رحلته كما ترى هو لم تتجاوز ارض قريته (كونكورد) فهو لم يركب بحراً . ولم ينشر قلاعاً . ولكنه مع ذلك عرف لذة المخاطرة . وذاق حلاوة الاستكشاف . انه استكشف كونكورد قريته الصغيرة ! انه استكشف نفسه ! انه ركب بحاراً بعيدة . بدي مجهولة الشاطيء عميقة الاغوار . ورجع الى الميناء محملاً بعجائب الكنوز . انه ذاق اللذة التي ذاقها خرستوفر كولمبس ورجاله حينما دفعتهم الامواج الغربية الى ارض نائية بعيدة . انه احس بما احس به المستكشفون الذين وقفوا صامتين على قمة في «داريين» ينظرون بعين العجب الى عظمة المحيط الهادي . .

لم يكن ثورو مخاطراً فحسب بل كان ثائراً . انه ثار على الكنيسة وأبى ان يدفع لها ضريبتها . انه ثار على الحكومة وأبى ان يدفع لها ضرائبها . . . انه ثار على المجتمع . . .

ولما سجنوه في ثورته زاره في السجن صديقه امرسون وقال له (لماذا أنت هنا ؟) فكان رده عليه (ولماذا أنت لست هنا ؟؟) . وكأنه يقول لصاحبه : في مثل هذا الوقت وفي مثل هذا الظرف يجب ان يكون السجن للرجال . . .

والآن نصل الحديث عن قرية « كونكورد » التي ولد فيها ثورو . فكانت وحي إلهامه الاول . والمشهد الذي تفتحت على جماله عيناه الطفلتان . .

في حرب الملك فيليب لم يستطع الهنود ان يتغلبوا على هذه القرية مع أنهم أحرقوا جاراتها الصغيرة . وتقول خرافة تاريخية ان رئيس الهنود أطل على القرية من هضبة مجاورة ثم قال « لن نستطيع ان نغلب هذه القرية الثائرة . . أنها محبوبة الروح العظيم »

ولا تمتاز هذه القرية بمعدن او منجم . . حتى جليدها الابيض لم يسلم من الحصى الأغبر في طياته . وانما تمتاز بغاباتها وحشائشها وهدوئها السائد . وفي ظل هذا الهدوء نشأ أمرسون وثورو . ولقد كان أمرسون صديق كاتبنا وأستاذه ورفيقه في الغابة يرتاح الى هذا الهدوء الذي لا يقصه الا خرير الماء ، وخوار البقر ، وثغاء الشاة ، وتمتمة النسيم . وكان يقول (ان هذه الابقار الجاثمة تحت ظل هذه الاشجار تبدو لي كأنها سابحة في بحار من الافكار العظيمة الهادئة)

وفي هذه القرية أيضاً يقول مستر بروكس مؤرخ الادب الاميركي (كانت هذه القرية مدرسة لدراسة الطبيعة البشرية . يستطيع المرء ان يتعلم فيها شتى أنواع المهن بالتحدث الى صانعها او بدالها . وقد تجمع فيها تاريخ البشرية وتكرر حتى لترى العالم في أحد أركانها المتواضعة . ثم العالم بماضيه ومستقبله) . نشأ الصديقان كزهرتين نابتتين في حوض واحد . . . وكانت احدى الزهرتين اكبر من اختها واشد صبغاً . وكانت الثانية أشد رائحة . وكان ما بينهما من المسافة يأذن للنسيم بالمرور على كل واحدة في طلاقة وحرية

كان ثورو مثل أمرسون يخرج الى الغابة كل يوم ومعه اوراقه يدوّن فيها مشاهده ومرائيه . ومعه « عينه المجهرية » يشاهد بها ألواناً شتى من حشرات الارض وهوامها . ولم يكن ينظر الى الطبيعة فحسب . بل كان ينظر فيها ويرى خلالها ويدرك ما وراءها

انه كان يحب الوادي وهو مغمور في بحار الضباب الكثيف حيث تبدو فيه الاشجار كأنها السفن في غمر المحيط . وما أحب المطر الى نفسه ، يتساقط كالسيل المنهمر وهو واقف تحت شجرة ينظر الى اوراقها المتناثرة تحت قدميه ، او يفحص لحاءها المتقشر

وكانت غدران (والدن) كما يصفها هو بقلمه « بلوراً على سطح الأرض . ولو تقدّر لها ان تجمد وتستقل حملت — كالأحجار الكريمة — الى الاباطرة لتزين رؤوسهم . ولكن سيولتها وكثرتها جعلاها قليلة القيمة »

هذا هو هنري دافيد ثورو الأميركي ، حدثني اليه ايفلين ميلر Evelyn Miller الكاتبة الأميركية يوم ان التقينا على نهري الشير واللوار بفرنسا سنة ١٩٣٤ . فسمعت في صوتها صوت الطبيعة الجهير . . .